مجلة عيون المسائل
Oyunul-Mesail Journal
العدد 1 مجلد 1 30- 06 -2023
DOI: 10.5281/zenodo.10691183

منهج القرآن الكريم في تزكية النفس من الصفات المذمومة

د. إبراهيم حقي إمام أوغلو، عمر صالح عمر فارس

The Holy Qur'an's methodology of purifying the soul from reprehensible morals.

İbrahim Hakkı İMAMOĞLU | ORCID: 0000-0002-3597-6308
Associate Prof. Dr. İbrahim Hakkı İMAMOĞLU | İbrahmimamoğlu@karabuk.edu.tr
Karabuk University - Faculty of Islamic study

Omar salih omar fares | ORCID:0009000589007050
Omar salih omar fares | omar.salih.kuchar@gmail.com
Karabuk University - Faculty of Islamic study

الملخص

الإنسان هو النقطة المحورية الثانية بعد الله تعالى التي يدور حوله القرآن الكريم؛ فهو المخاطب بآياته، والمطالب بتطبيق أحكامه والوقوف عند حدوده، ومن هنا نجد أن الوحي الإلهي سلط الضوء على ما في نفس الإنسان من صفات مذمومة، سواء كانت تلك الصفات مما جُبِلَ عليها وفُطِر كالضعف والعجلة، أم كانت تلك الصفات مكتسبة ونتيجة عن غفلته وضلاله كالطغيان والكفر والبخل، ويقيناً بأن القرآن الكريم هو الهدى والدستور الذي أنزله الله تعالى للإنسان لينجيه من تلك الصفات التي تكون سبباً في ضلاله وشقائه، فكان لابد من النظر في آيات القرآن الكريم والتأمل فيها بغية استنباط المنهج القرآني في معالجة الإنسانية مما اتصفت بها من صفات مذمومة، وتزكية نفسه والارتقاء بها، ولتحقيق هذا الهدف اتبعنا في بحثنا هذا كل من المنهج الاستقرائي: من خلال جمع واستقراء الطرق التي سلكها القرآن الكريم في تزكيته للإنسان من الصفات المذمومة المنسوبة إليه، إضافةً إلى المنهج التحليلي: من خلال دراسة الآيات المشتملة على وسائل وطرق لتزكية الإنسان، وتحليل أقوال العلماء والمفسرين فيها بغية الوصول لإقرار طرق التزكية القرآنية. ومن أهم النتائج التي توصل إليه البحث: أن القرآن الكريم نَهَجَ في معالجته للسوك البشري المذموم طريقين اثنين: الأول: المعالجة المباشرة للصفات المذمومة كلّاً على حدة، والثاني: المعالجة العامة للسلوك الإنساني المذموم، وذلك من خلال حث الإنسان على محاسبة نفسه، ووقايتها من الذنوب والخطايا، إلى جانب حرص القرآن على تحقيق الموازنة في جانبي الترغيب والترهيب في دعوته للإنسان.

الكلمات المفتاحية: تزكية النفس– الصفات المذمومة– المنهج القرآني– محاسبة النفس.

ABSTRACT:

The Holy Qur'an revolves around human beings, the second main point after God Almighty. He is the one who is addressed by His verses and is expected to follow its rules and conform to its limitations. As a result, we see that divine revelation shone light on the deplorable traits in the human spirit, whether those flaws were natural, such as frailty and haste, or acquired because of his neglect. And his misguidance is like tyranny, unbelief, and miserliness, and we are confident that the Holy Qur'an is the guidance and constitution that God Almighty revealed to man to deliver him from the traits that are the source of his misguidance and sorrow. It is required to study and ponder on the verses of the Holy Qur'an to deduce the Qur'anic method to ridding mankind of the deplorable elements that define it, as well as purifying and elevating oneself and others. In our research, we used both an inductive approach (collecting and extrapolating the methods used by the Holy Qur'an to purify man from the reprehensible qualities attributed to him) and an analytical approach (studying the verses that include means and methods for purifying man, as well as analyzing the sayings of scholars and commentators). To obtain clearance for the Qur'anic purifying procedures. Among the most significant results of the study is that the Holy Qur'an used two approaches in its treatment of reprehensible human behavior: direct treatment of reprehensible traits individually, and general treatment of reprehensible human behavior, which urged a person to hold himself accountable. In addition to shielding humanity from faults and transgressions, the Qur'an strives to strike a balance between encouragement and fear in its appeal to mankind.

Keywords: Purification of the soul, objectionable qualities, the Quranic method, and holding the soul accountable.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد نظر القرآن الكريم الى الإنسان نظرة خاصة في أرقى تصور، حيث أكرمه الله سبحانه تعالى بغض النظر عن دينه، وانتمائه العرقي والقومي، ووضعه المادي، وغير ذلك، ويقول الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]. وكذلك خاطبه الله سبحانه باعتباره كائناً سّخَّرَ له ما في السماوات والأرض، حيث قال تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعَمه ظاهرةً وباطنةً﴾ [لقمان: 20]. وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13].

وقدّ ميّز الله الإنسانَ عن الكائنات الأخرى بالعقل، وجعل ذلك مناط التكليف، وكذلك غرس فيه العديد من الصفات المذمومة والحميدة، وإلى جانب ذكر تلك الصفات تضمن القرآن الكريم آيات تحث الإنسان على تزكية نفسه ومعالجتها مما شابها من صفات مذمومة، وسنقوم بهذا البحث بمحاولة استنباط منهج القرآن الكريم في تزكية النفس الإنسانية والوسائل التي سلكها لتحقيق ذلك.

مشكلة البحث:

الناظر في آيات القرآن الكريم يجد فيها ذكر لكثير من الصفات المذمومة منسوبة للإنسان، سواء اقترنت تلك الصفات بلفظ الإنسان أو دلّ السياق القرآني على أنه المقصود بها الإنسان، فعلى سبيل المثال وصِف الإنسان بالضعف والبخل والعجلة والظلم والطغيان، وغيرها من الصفات المذمومة، والسؤال الذي يطرح هنا: هل اكتفى القرآن الكريم بذكر هذه الصفات في معرض التحذير منها فقط؟ أم أن آيات الذكر الحكيم تضمن منهجهاً ربّانيا يعالج النفس البشرية من تلك الصفات ويزكيها، وبناء على ما تقدم يكون السؤال الرئيس للبحث هو:

ما هو منهج القرآن الكريم في تزكية النفس البشرية من الصفات المذمومة؟

ويتفرع عن هذا السؤال بعض الأسئلة الفرعية، منها:

ما هو مفهوم التزكية؟ وما هي أهم مصادرها؟

وما مدى حاجة الإنسان للتزكية؟

أهداف البحث:

انطلاقاً من الأسئلة التي وردت في مشكلة البحث يمكننا أن نحدد أهداف البحث في النقاط الآتية:

1- التعريف بمفهوم التزكية، وذكر أهم مصادرها.
2- بيان مدى حاجة الإنسان للتزكية.
3- تسليط الضوء على المنهج القرآني في تزكية النفس الإنسانية من الصفات المذمومة المنسوبة له في القرآن الكريم.

منهج البحث:

يتبع البحث مناهج عديدة للوصول إلى أهدافه، وهذه المناهج كما يلي:

المنهج الاستقرائي: ويطبّق البحث هذا المنهج من خلال جمع واستقراء الطرق التي سلكها القرآن الكريم في تزكيته للإنسان من الصفات المذمومة المنسوبة إليه.

المنهج التحليلي: من خلال دراسة الآيات المشتملة على وسائل وطرق لتزكية الإنسان، من خلال تحليل أقوال العلماء والمفسرين فيها بغية الوصول لإقرار طرق التزكية القرآنية وإظهار مدى نجاعتها في معالجة الصفات المذمومة.

المبحث الأول: مفهوم تزكية النفس، وأهم ومصادرها.

يسعى الإنسان بفطرته إلى معالجة ما في نفسه من صفات مذمومة أو سلبية والتخلص منها، واستبدالها بغيرها من الصفات الحميدة، التي ينبغي للإنسان المسلم التحّلي بها، ويمكن أن تُسمّى عملية المعالجة بالتزكية أيضاً، فالإنسان الذي يزكّي نفسه من الصفات المذمومة، هو الذي يعالج نفسه عن طريق التخلص من هذه الصفات المذمومة، ونبيّن في هذا المبحث تعريف تزكية النفس، وكذلك مصادر التزكية للنفس أو معالجتها، وهذا في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: مفهوم تزكية النفس وحاجة النفس الإنسانية للتزكية.

1- مفهوم تزكية النفس.

التزكية لغة: وتعني التزكية في اللغة الطهارة، والزيادة، والنماء، فيقال: زكا يزكو زكاءً، ويعنى نما أو زاد، وتزكّيهم بها، يعني تُطهّرهم، وزكاة المال هو تطهيره ونماؤه وزيادته.[1]

أما في الاصطلاح: فتعني التزكية في الاصطلاح: انتزاع ما هو غير مرغوب فيه، وتعزيز ما هو مرغوب فيه.[2]

وبالنظر في هذا التعريف نجد أنّه جاء عاماً، وقصد انتزاع ما هو مذموم في أي شيء، وإضافة ما هو مرغوب ومطلوب في أي شيء، فالشخص الذي يزيل الأوساخ مثلاً عن جسده بالماء وجميع أنواع المطهرات أو المنظفات، ثم يضع على جسده الملابس النظيفة وأنواع العطورات اللطيفة، فهو بذلك يكون قد زكّى جسده، وكذلك فإنّ الشخص الذي يصلح شؤون بيته بإزالة أوساخه ونفاياته، ويضيف إليه ما هو جميل ومرغوب يكون قد زكى منزله، وهكذا فإزالة الأوساخ عن أي شيء واستبداله بما هو حسنٌ هو تزكية.

والذي نعنيه من تزكية النفس هنا هو ذات المعنى، ولكن من خلال التزكية الرّبانية والدينية الصحيحة للنفس البشرية من أدرانها وذنوبها.

وبناءً على ما سبق فإن مفهوم تزكية النفس هو: تنقية النفس من العيوب والرذائل والآفات الظاهرة والباطنة، وتحليتها بالفضائل والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضي الله عز وجل، وبما يرضي رسوله صلى الله عليه وسلم، ويحقق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا والفلاح والنجاة في الآخرة[3].

2- حاجة النفس الإنسانية إلى التزكية.

النفس الإنسانية بحاجة دوماً إلى التزكية والتهذيب والرعاية كما يفعل صاحب الأرض بأرضه، فالأرض الزراعية حتى تنتج بشكل جيد، فإنّه لابدّ من تعهدها الدائم بالسقاية والرعاية الدائمة والمستمرة، وإلا فإنها لن تنتج شيئاً، وهذا هو الحال مع النفس الإنسانية أيضاً، التي تحتاج إلى الممارسة الدائمة للفضائل وفعل الخيرات حتى تتخلص من شوائبها وصفاتها السلبية، كي تنال رضوان ربها، وذلك عن طريق مراقبتها، وقد عبَّر عن ذلك ابن الجوزي فقال: "أما رأيت الزارع يتخير الأرض الطيبة ويسقيها ويرويها ثم يثيرها ويقلبها، وكلما رأى حجراً ألقاه، وكلما شاهد ما يؤذي نحاه، ثم يلقي فيها البذر ويتعهدها من

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، 359/14.

[2] الكيلاني، ماجد عرسان، **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، (دمشق: مكتبة دار التراث، 1985) ص41.

[3] الندوي، أبو الحسن علي الحسني ، **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء القرآن والسنة والسيرة النبوية**، (الكويت: دار القلم. ط2، 1983م) ص134. أبو دف، محمود خليل ، **ممارسات طلبة الجامعة الإسلامية التربوية لتزكية النفس وعلاقتها ببعض المتغيرات**، (غزة: كلية التربية، الجامعة الإسلامية) ص9.

طوارق الأذى؟ وكذلك الحق عز وجل إذا أراد عبداً لوداده حصد من قلبه شوك الشرك، وطهره من أوساخ الرياء والشك، ثم يسقيه ماء التوبة والإنابة".[1]

المطلب الثاني: مصادر تزكية النفس.

ذكر ابن القيم أنَّ تزكية النفس الإنسانية لا تحصل إلا عن طريق بعثة الرسل عليهم السلام فيقول: "وتزكية النفوس مُسلّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليماً، وبياناً، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم"[2].

فهم مرسلون لهداية الأفراد والأمم، وقد قال الله تعالى في هذا الشأن: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ ويزكيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾. الجمعة: (2) .

فمن حاول أن يزكي نفسه بالرياضة، أو المجاهدة أو الخلوة، أو أي طريقة أخرى لم يأتِ بها رسل الله، ولم يأمروا بها، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، دون مراجعة الطبيب واستشارته، وأين يقع رأيه من دراية الطبيب وخبرته، لذا فالرسل هم أطباء للقلوب، ولا سبيل إلى تزكيتها وتخليصها من شرورها إلا عن طريقهم، والسير على نهجهم، واتخاذهم قدوة، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم.

المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في معالجة الصفات المذمومة للإنسان.

تمهيد:

أنزل الله تعالى كتابه المبين هدايةً للناس وإخراجاً لهم من ظلمات النفس والهوى إلى نور الهداية والإيمان، فخالق الإنسان خبيرٌ بعيوبه وعلات نفسه، لذا نجد القرآن الكريم نَهَجَ في معالجته للسوك البشري المذموم طريقين اثنين:

الأول: المعالجة المباشرة للصفات المذمومة كلّاً على حدة، وذلك بتصوريها وبيان سوءِ حالِ المتصف بها، مع التحذير منها، ثم بيان العلاج المناسب لتلك الصفة وكيفية التخلص منها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُوم ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾، المعارج، (19-27).

فالملاحَظ هنا أنّ القرآن قد ذكر الصفة المذمومة في الإنسان، وهي الهلع وما يتولد منها من صفات كالجزع والمنع، إلّا أنَّ القرآن لم يكتف بذكر الصفة المذمومة فقط، بل ألحقها ببعض وسائل العلاج، أو استثنى من هذه الصفات المذمومة فئات

[1] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **مواعظ ابن الجوزي**، (بدون معلومات). ص97.

[2] ابن القيم، **مدارج السالكين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1416هـ - 1996م)، 300/2.

من الناس، وهم المصلون المواظبون على صلواتهم، والمزكون الذين يؤدون حق أموالهم للمستحقين من الفقراء والمحتاجين، والمصدقون باليوم الآخر والذين يخشون عذاب الآخرة.

الثاني: المعالجة العامة للسلوك الإنساني المذموم؛ وذلك باتباع منهج إصلاحي عام من خلال وضع مبادئ من شأنها معالجة كل ما قد يتصف به الإنسان من سلوك مذموم، وفيما يأتي سأعرض أهم هذه المبادئ والسمات العامة.

المطلب الأول: محاسبة النفس.

أرشد القرآن الكريم الإنسان إلى أسلوب يقي به نفسه من السقوطِ في براثن المعصية واتباع الهوى، وذلك بانتهاج نهج "محاسبة النفس"، وذلك بمحاسبةٍ عامةٍ شاملةٍ لكل ما يصدر عن جوارح الإنسان من أفعال، كما تشمل ما قد يدور في نفس الإنسان من سوء وخبث، كالكبر واليأس وغيرها من الصفات المذمومة، وقد تكلم عن هذا المبدأ علماء المسلمين على اختلاف علومهم ومسالكهم.

فعلماء التفسير تحدثوا عن هذا المبدأ، فالثعالبي نقل في تفسيره إجماع العلماء على وجوب محاسبة النفس، حيث قال: "أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس فيما سلف من الأعمال وفيما يستقبل منها"[1].

وإلى معنى محاسبة النفس أشار الماوردي–الفقيه الشافعي– في كتابه أدب الدين والدنيا ضمن حديثه عن الآداب المأثورة، حيث قال: " ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإنَّ الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر. فإن كان محمودا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل." [2]، وما ذكره الماوردي هو تعريف لماهية جوهر محاسبة النفس وإن لم يذكر هذا المصطلح، وبذلك نجد أن مبدأ محاسبة النفس كثمرة غرسها الوحي الإلهي في قلوب المؤمنين فظهرت ثماره في مختلف العلوم، وليس آخرها علم التصوف وتزكية النفس، فقد جاء في كتاب أعمال القلوب للإمام المحاسبي أحد أبرز أئمة الصوفية من السلف، حيث قال: "التثبت قبل الفعل والترك من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة، حتى يتبين له ما يترك وما ويفعل، فإن تبين له ما كره الله جانبه بعقد ضمير قلبه، وكفّ جوارحه عمّا كرهه الله، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض وسارع إلى أدائه"[3]. بالنظر في تعريف الإمام المحاسبي نجد أنه رفع من مستوى المحاسبة حيث جعلها سابقةً على الفعل، وذلك بالتريث وعدم الأقدام على فعل أو حتى العزم عليه قبل التحقق من مدى موافقته ومطابقته لشرع الله وحكمه، فهو الفاصل في ذلك؛ فإن كان مما نهى عنه الشرع أحجم عنه وانتهى، أما إن كان مما أمر به فَيُلزِمُ نفسه الفعل دون انقطاع أو تأخر في الأداء.

---

[1] الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، **الجواهر الحسان**، 568/5.

[2] البغدادي، علي بن محمد البصري، **أدب الدنيا والدين**، (بيروت: درا مكتبة الحياة، بدون طبعة)، ص 365.

[3] لمحاسبي، الحارث بن أسد، **المسائل في أعمال القلوب والجوارح**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2019م)، ص 200.

الفرع الأول: مبدأ محاسبة النفس في القرآن الكريم.

إنَّ مبدأ محاسبة النفس الذي فيه علاج لانحراف الإنسان وسوءِ سلوكهِ، مستنَدُه وأصل مشروعيته من القرآن الكريم، فما هو إلا من هدي القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

فقد بدأت الآية بتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، لتنبيههم لأهمية ما سيأتي ولعموم حاجة المؤمنين للمراقبة النفس ومحاسبتها، كما دلّت لام الأمر في "ولتنظر" على وجوب نظر الإنسان فيما يقوم به من أعمال، فهذه الآية هي الأصل في مبدأ محاسبة الإنسان لنفسه ومستندها الشرعي[1].

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً جوهر ما جاءت به الآية، ويظهر ذلك في الأثر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه حين قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر يوم لا تخفى منكم خافية"[2]، هذا الأثر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه فيه تنبيه وإرشاد إلى أصلٍ عظيمٍ وعلاجٍ لا يستغني عنه كل إنسان بين جنباته نفس أمارة بالسوء، فيستدرك الأمر ويصحح المسار قبل أن ترفع الأقلام وتجف الصحف، ويعضّ على يده ندماً على أقدم عليه من سلوك ومخالفات شرعية.

وعلى نهج الصحابة سار التابعون في تطبيقهم لمبدأ محاسبة النفس وتوصية الناس بهم، فقد روي عن إمام التابعين الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: "إنَّ المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عزّ وجل. وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير حساب." [3].

وبالعودة إلى القرآن الكريم نجد فيه من الآيات ما تضمنت الإشارة إلى محاسبة النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 2]. حيث اختلف أهل التأويل في مراده جلّ وعلا من كلمة " اللَّوَّامَةِ"، فقد روى الطبري عن ابن عباس أنها النفس المذمومة[4]، بينما ذهب سيدنا عمر رضي الله عنه في تفسيرها إلى معنى معاكس للمعنى الأول، حيث فسرها باللّوم الحسن الذي يحمل معنى محاسبة النفس، فقد روي عنه أنه قال: "ما من نفس برة وفاجرة، إلا تلوم نفسها، إن كانت محسنة تقول: يا ليتني زدت إحساناً، وإن كانت سيئة تقول: يا ليتني تركت"[5]، وإلى قريب من ذلك ذهب الحسن

---

[1] م الكلبي، حمد بن أحمد بن حزم، **التسهيل لعلوم التنزيل**، (بيروت: شركة دار الأرقم بن الأرقم، الطبعة الأولى، 1416هـ)، 362/2. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنام**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ)، 853.

[2] أخرجه **الترمذي في سننه**، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث: 2459، 683/4. **مصنف أبي شيبة**، كتاب: الزهد، باب: كلام عمر بن الخطاب، رقم الحديث: 34459، 97/7.

[3] الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (مصر: مطبعة السعادة، 1394هـ)، 157/2.

[4] الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، 50/24.

[5] السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، **بحر العلوم**، 520/3.

البصري في تفسيره لكلمة "اللوامة"، حيث روي عنه أنه قال: "وهو نفس المؤمن، إنّ المؤمن لا تلقاه إلا وهو يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكلامي، ما أردت بكذا، ما أردت بكذا، يندم على ما فات، ويلوم نفسه"[1].

ومن الآيات التي تضمنت تذكيراً للإنسان بمحاسبة نفسه كونه مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من تصرفات وأفعال، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: (36). حيث بدأت الآية الكريمة بالنهي عن الخوض فيما ليس للإنسان علم به؛ وذلك باتباع الناس بما يقولون وبما يؤمنون دون بصيرة، ثم أشارت إلى مجموعة من أعضاء الإنسان التي تكون سبباً في عمل الجوارح، وهي السمع والبصر والقلب، ثم جاء تحذير الإنسان وتنبيهه إلى أنه سيحاسب على كل ما استعمل فيهما هذه الجوارح وغيره من أفعال؛ فيسأل السمع عما سمع والبصر عما أبصر والقلب عما عزم عليه[2]، فيقتضي ذلك وجوب محاسبة الإنسان لنفسه استعداداً لما ينتظره من حسابٍ يوم القيامة.

الفرع الثاني: نتائج محاسبة الإنسان لنفسه.

إن إهمال محاسبة النفس وإرخاء الحبل لها يجعل النفس تنغمس في ظلمات الشهوات، في حين أن المداومة على محاسبة النفس من شأنه أن يقلل من الصفات المذمومة لدى الإنسان ويجعل حسابه يسيراً يوم القيامة، ومن أهم نتائج محاسبة النفس:

- **استشعار العبد مراقبة الله الدائمة له.**

إنّ مداومة العبد على محاسبة نفسه تورثه استشعار مراقبة الله عزّ وجلّ في كل أحواله وشؤونه، وهذا من أرفع الدرجات التي يبلغها العبد المؤمن، وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه في الحديث الذي جاء فيه سيدنا جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأل النبي صلى الله عليه وسلم تعليماً للصحابة، حيث ورد فيه ما يلي: "قال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك." [3]. فكما أن محاسبة النفس تكون سبباً في تقوية الشعو بمراقبة الله، فإن استشعار العبد مراقبة الله الدائمة له تكون سبباً في تقوية محاسبة العبد لنفسه والتحكم بشهواته ونزواته، أي كل أمرٍ منهما هو سبب للآخر ونتيجة له في نفس الوقت.

---

[1] ابن أبي مزنين، محمد بن عبدالله المالكية، **تفسير القرآن العزيز**، (القاهرة: الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، 1423هـ)، 63/5.

[2] الماتريدي، محمد بن محمد أبو منصور، **تأويلات أهل السنة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2005م)، 45/47. السمرقندي، **بحر العلوم**، 311/2. ابن أبي زمنين، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز، (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ-2002م)، 21/3.

[3] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب: التفسير، باب: إن الله عنده علم الساعة، رقم الحديث: 4499، 1793/4. مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم الحديث: 9، 30/1.

- **استشعار الحساب في اليوم الآخر.**

من المعلوم أن محاسبة النفس منطلقها الإيمان بالحساب يوم القيامة، فقد جاء في الوحي المبين: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]. فمن آمن بيوم الرّجعة إلى الله، والوقوف وحيداً بين يديه حاسب نفسه ونزهها عن كل صفة مذمومة تكون سبباً في معصية ربه، فإذا اعتاد العبد محاسبة نفسه وداوم على ذلك زاد عنده الإيمان باليوم الآخر واستشعاره لأحواله وأهواله؛ ويصبح معتاداً على عَرْضِ الأعمالِ التي قام بهاَ ومحاسبة نفسه عليها، وما يتبع ذلك من حزنٍ على معصية وفرحٍ على طاعة.

المطلب الثاني: الوقاية من الصفات المذمومة

بعد مبدأ محاسبة النفس–والذي يكون عادةً بعد القيام بالفعل– نجد أن القرآن جاء بمبدأ "الوقاية من الصفات المذمومة" الذي يشكلّ حائط صدٍّ لكل معصيةٍ وذنب، ويدل على اهتمام القرآن بهذا المبدأ والعمل على تكريسه، تكرارُ ورودِ كلمة "وقى" 16 مرة[1].

وقد وضع القرآن الكريم الأساس الذي تقوم عليه الوقاية، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:151]. فقد جاء هذا التحذير الإلهي بالوقاية من قرب الفواحش في آيةٍ بدأت بالنهي عن الشرك–وهو أعظم الذنوب وأفحشها– ثم ذكرت القتل ثم أعقب ذلك بقاعدة عامة شكلت أساس مبدأ الوقاية من الصفات المذمومة ألا وهي قاعدة: "ولا تقربوا الفواحش"، فجاءت "ما" في الآية دالةً على العموم؛ فشملت كل أنواع الذنوب والآثام، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، قال أهل التفسير: "ما ظهر منها" ما يكون من عمل الجوارح، "وما بطن" ما يكون بالقلب، فتكون بذلك الآية عامة تشكل كل المعاصي والآثام [2].

ويقوم مبدأ الوقاية من الصفات المذمومة على أساسيين اثنين:

الأول: هو تقوية الإيمان بالله، ويساعد في ذلك تزكية الإنسان لنفسه وتطهيرها من الذنوب والخطايا، وإبعادها عن كل ما نهاه الله عنه، فإذا قوي الإيمان وكمل جاء الأساس.

الثاني: وهو حماية النفس؛ وذلك بالوقاية من الصفات المذمومة، والتي تكون كالسياج الحامي للإيمان، فيكون بذلك كل من قوة الإيمان وحماية النفس ووقايتها من الذنوب يقوي كل واحدٍ منها الآخر ويسانده[3].

---

[1] أبو الفتوح، **قائمة معجمية بألفاظ القرآن الكريم ودرجات تكرارها**، ص 127.

[2] الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، 310/4. عبد الحق ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422هـ)، 362/2. وينظر أيضاً:

Ömer Nasuhi BİLMEN. **Kur'an-ı Kerim'in Türkçe Meali Alisi ve Tefsiri**. 2/976.

[3] البرش، نعيمة عبدالله، **آفات النفس كما يصورها القرآن الكريم**، (رسالة ماجستير في تقسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة)، 164.

الفرع الأول: آيات دالة على مبدأ "الوقاية من الصفات المذمومة" في القرآن.

كما سبق ذكره فقد تكرر ورود كلمة "وقى" في القرآن الكريم ست عشرة مرة، وذلك في مواضع مختلفة وضمن مواضيع متنوعة، فيما يلي سأذكر بعض هذا المواضع:

- قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: 9]. فالآية هي دعاء من الملائكة لبني آدم بأن يحفظهم الله من عاقبة وسوء ما يحلّ بهم يوم القيامة بسبب الذنوب والآثام صغيرها وكبيرها[1]؛ وهذا الدعاء من الملائكة لا يتحقق إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بوقاية أنفسهم مما نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه.
- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

قال عبد الله بن مسعود في تفسيره لمعنى "شح النفس": بأن يعمد الإنسان إلى مال غيره فيأخذه، بينما ذهب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى أنّ شح النفس: هو اتباع هوى النفس؛ وذلك باتباع الشهوات واقتراف المعاصي، والابتعاد عن هدي الله تعالى وأوامره[2].

وفي الآية دفعٌ من الباري عزّ وجلّ لعباده باتجاه مبدأ الوقاية من شح النفس، فتكون وقايتهم لأنفسهم من الصفات المذمومة سبباً في فلاحهم وفوزهم بالجنة، وإلا وقعوا في مهالك شح النفس الذي يحمل في معناه العام اتباع الهوى الموصل للهاوية.

- قوله تعالى: ﴿51﴾إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴿52﴾فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿53﴾يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴿54﴾كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ سورة الدخان.

الآيات السابقة هي بيان إلهي لنتيجة مبدأ الوقاية من الصفات المذمومة؛ وذلك بعرض ما أعده الله من أنواع النعيم وحسن المقام لعباده المتقين الذين ألجموا أنفسهم، وألزموها الوقاية والبعد عن كل ما نهى الله عنه من صفات سلبية تكون سبباً في معصية الخالق.

قال أهل التأويل في التفسير الإجمالي للآيات السابقة: بعد أن ذكر الباري وعيد أهل الكفر والشرك، وما ينالهم من الأهوال يوم الحساب، أعقب ذلك ببيان ما أعده لأهل التقوى مما سيلاقونه في جنات الخلد من أصناف النعيم والتكريم في ملبسهم، وما أعدّ لهم من حسن المسكن والمجلس إضافةً لما ينتظرهم من زوجاتٍ وصِفنَ بالحور العين، ويكمّل ذلك النعيم وجود كل ما يشتهيه المرء من المأكل والمشرب، ثم ختم وعده لهم بأنّ هذا النعيم كله أبديّ خالد لا يعقبه ولا يعكر صفوه الموت[3].

---

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 296/15. محمد بن الحسن ابن فورك، **تفسير ابن فورك**، تحقيق: علال بندويش، (السعودية: جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 2009م)، 344/2.

[2] مجموعة من المؤلفين، **موسوعة التفسير المأثور**، 697/21. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي سلامة، (القاهرة: دار طيبة، الطبعة الثانية، 1999م)، 101/8.

[3] أحمد بن مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، (مصر: مصطفى البابي الحلبي، ط1، 1365هـ)، 136/25.

الفرع الثاني: وسائل تنمي مبدأ الوقاية من الصفات المذمومة عند الإنسان.

الناظر في كتاب الله تعالى يجد فيه إضافةً للآيات التي ذكرت مبدأ الوقاية وحثّت عليه، آياتٍ أخرى تضمنت ذِكرَ وسائلٍ من شأنها تمكين مبدأ الوقاية في نفس الإنسان المؤمن وزيادته، ومن أهم تلك الوسائل:

الوسيلة الأولى: خشية الله في قلب الإنسان، ومخافة حسابه.

خشية الله والخوف منه أساسٌ لفلاح الإنسان، وسببٌ لنجاته يوم الحساب؛ وذلك لأنَّ صفة الخشية وحضور مخافة الله في قلب الإنسان ما هي إلا دليل على كمال الإيمان بالله والشعور بمراقبته لكل ما يصدر من العبد من أفعال وأقوال.

ونجد في الذكر الحكيم ارتباطاً وثيقاً بين خشية الله والتقوى-والتي هي فعل كل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه-، فتقوى الله ما هي إلا نتيجة لخشيته وخوف عذابه، وبالمقابل خشية الله هي ومن وسائل زيادة تقوى الإنسان وتمكين ذلك من قلبه وعقله، فإذا تقرر ذلك كانت خشية الله من وسائل وقاية النفس من الصفات المذمومة أيضاً؛ كون مبدأ الوقاية يدخل تحت مظلة التقوى باعتبار النتيجة، فنتيجة كل من التقوى والوقاية هي فعل أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وفيما يأتي سأعرض بعض الآيات التي تظهر فيها علاقة السببية بين خشية الله والوقاية من نواهيه:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33]. بدأت الآية الكريمة بأمر الناس بالتقوى الذي يكون سبباً لنجاتهم يوم الحساب[1]، ثم أعقب الأمر بالتقوى، أمرهم بخشية الله، في إشارة إلى أنّ خشية الله هي ومن وسائل تحقيق تقوى الله وتمكينه في القلب.
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:21]. بينت الآية الكريمة أحد ثمرات التقوى ألا وهي صلة الرحم[2]، ولا يكون ذلك إلا من المتقين، ثم جاء ذِكر خشية الله والخوف من الحساب كوسيلة لتحقيق التقوى، فكان اللاحق (خشية الله) سبباً ووسيلةً للسابق (التقوى).
- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: 52].

بيّن الوحي الإلهي أن كلاً من طاعة الله ورسوله والخشية والتقوى هي أسباب للفوز في الآخرة؛ فتكون خشية الله داعمة للتقوى ومساندة لها في تحقيق النتيجة المرجوة بالفوز يوم الحساب، وقد فصّل أهل التفسير في ذلك فذهبوا إلى أن طاعة الله تكون في الفرائض، وطاعة رسوله تكون باتباعه في السنن، أما الخشية فتكون فيما مضى من أعمال، والتقوى لما سيفعله من أعمال في المستقبل، فيتوج ذلك كله بالفوز بالجنة[3].

---

[1] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 314/6.

[2] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 507/13.

[3] السمرقندي، **بحر العلوم**، 520/2. الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، 584/7.

الوسيلة الثانية: معرفة الله تعالى والعلم بصفاته.

بقدر معرفة الإنسان بصفات الله تعالى وإدراكه لمعانيها بقدر ما يزداد حرصه على وقاية نفسه مما نهاه الله من السيئات، فكلما زادت معرفة الإنسان للأسد وصفاته كالوحشية والافتراس والسرعة في الجري، كلما زادت خشيته من الأسد، ولله المثل الأعلى.

لذا نجد القرآن الكريم يزخر بالآيات المبينة لصفات الله تعالى وقدراته، بغاية تعريف العباد بخالقهم فيكونوا على قدر كافٍ من الحرص الوقاية، فيفعلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، وفيما يأتي سأذكر بعض من تلك الآيات:

- ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: 8-10]. البيان الإلهي في هاتين الآيتين هو من جوامع الكلم؛ حيث بدأت ببيان مدى علم الله وتحكمه بكل ما يجري للإنسان من حين كونه نطفةً في رحم أُمّه، فكل شيء داخل في تقديره سبحانه وتعالى، فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص عنه، ثم جاءت الآية الثانية لبيان أن علم الله تعالى محيطٌ بكل ما قد يصدر من الإنسان من أفعال وأقوال، فما يصدر منه بالسر وما كان بالجهر وما كان تحت جنح ظلام الليل أو في وضح النار فكل ذلك بعلم الله وتحت مراقبته[1]، فمن علم هذه الصفات وأدركها وقى نفسه من السيئات وأسبابها، وكذلك وقى نفسه من الصفات المذمومة.
- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: 1-2].

تبارك: أي تعالى الله وتعاظم عن جميع صفات المخلوقين، وهو المالك المستولي على كل ما في الكون، وجاءت اليد هنا مجازية للدلالة على الاستيلاء[2]، وبعد بيان القدرة والملك التام لله تعالى في الآية الأولى جاءت الآية الثانية لبيان الغاية من وجود الإنسان وسبب خلق الله له؛ وهي غاية اختبار الإنسان وابتلائه، وما يتبع ذلك من مكافئة أو عذاب. فما تقدم من البيان الإلهي من إخبارٍ عن صفات الله، وكشفٍ لغاية خلق الإنسان، تكون وسيلة لزيادة تقوى الإنسان المؤمن لوقاية نفسه عن كل ما يجره إلى الإخفاق في اختبار الله له.

- ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56].

الآية تحكم على من ييأس من رحمة الله الواسعة بأنه من الضآلين؛ فمن يعرف أن الرحمة هي مما وصف الله بها نفسه، وأنّه تعالى سمّى نفسه بالرحمن، فلا يجوز له أن يقنط من رحمة الله، وذلك علاج ناجع يقي الإنسان من الصفات المذمومة كالقنوط واليأس.

---

[1] البغوي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، 4/298-299.

[2] الزمخشري، محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1407هـ)، 4/574-875.

الوسيلة الثالثة: عبادة التّفكّر في خَلقِ الله.

إن للتفكر في خلق الله تعالى ثمرات كثيرة، منها أنّ التأمل في ملكوت السماوات والأرض يُعرِّف الإنسان بقدرة الله ومدى سلطانه جلّ وعلا، فهو المتحكم بالكون والمدبّر فيه، فتكون هذه المعرفة سبباً في زيادة حرص الإنسان المؤمن على وقاية نفسه عن كل ما نهاه الله فلا يعصي خالقه في مُلكِه وسلطانه. كما أن عبادة التّفكر تورث الإنسان الاستشعار بنعم الله عليه وما سخره الله له من مخلوقات، فتكون معرفته بهذه النعم سبباً ودافعاً له لوقاية نفسه من الصفات المذمومة وما تؤول إليه من سيئات ومعاصي تكون عقوبتها فقدان للنعم وزوالها، وفيما يأتي سنعرض بعض الآيات التي دعت الإنسان للتأمل والتفكر في خلق الله وربط ذلك بتقوى الإنسان لنفسه ووقايتها من الآثام والذنوب:

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

فالآية الكريمة حضّت الإنسان على الذِّكر والدوام عليه في كلّ أحواله؛ فليزم الذكر سواءً كان قائماً أو قاعداً، وحتى إن كان مستلقياً على جنبه، كما تضمنت الآية تبياناً لأفضل أنواع الذكر–وأكثرها تأثيراً في يقين الإنسان وإيمانه–، وهو ذكر الله من خلال التأمل والتّفكر في مخلوقاته الدالة عليه وعلى بديع صنعه وتدبيره[1]، وختمت الآية بالتنبيه إلى وقاية الإنسان لنفسه من عذاب الله، ولزوم محافظته على دعائه لله بأن يوفّقه لوقاية نفسه من كل ما يعرضه لعذاب الله الشديد.

- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88]. الآية الكريمة دعوةٌ للنظر في عظيم صنع الله وقدرته؛ ومن ذلك سير تلك الجبال الشاهقة– العظيمة الحجم والكتلة –بقدرة الله وحوله، مع هذا التقديم ببيان قدرة الله تعالى جاء الوعيد منه سبحانه وتعالى؛ بأنّه خبير عالمٌ بكل ما يصدر من الإنسان من أفعال[2]، وبناءً على ما تقدم يظهر لنا كيف ربط الله تعالى بين التأمل والنظر في خلقه بلزوم وقاية الإنسان لنفسه من عذاب وبطش خالقه الذي خلقه من عدم.
- قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 11].

يقول الإمام الرازي في تفسير الآية: إنّ الله تعالى أباح لعباده السير في الأرض للتجارة ولغيرها من المنافع، مع إيجاب النظر والتأمل في آثار من أهلكهم الله لشركهم وطغيانهم[3]. وبذلك تكون الآية التي بين أيدينا كسابقتها من سورة النمل بدأت بالدعوة للتأمل وانتهت بالإشارة إلى وجوب الوقاية من الذنوب وإلا سيكون المصير كمصير من سبقهم من الغافلين العاصين لله تعالى والعياذ بالله.

---

[1] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 476/7. وينظر أيضاً:
ALTUNTAŞ - Muzaffer ŞAHİN. **KUR'AN-I KERİM MEÂLİ.** DİYANET İŞLERİ BAŞKANLIĞI YAYINLARI. 2011. 80.

[2] الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، 143/8.

[3] الرازي، **مفاتيح الغيب**، 488/2.

المطلب الثالث: الترغيب والترهيب.

الناظر في آي القرآن الكريم يجد أنه اعتمد كثيراً على مبدأ الترغيب الترهيب-كأسلوبٍ وقاعدةٍ عامةٍ- في معالجة الصفات المذمومة عند الإنسان، وإبعاده عن كل ما نهاه الله عنه، وقبل الشروع في الحديث عن هذا المبدأ لابد لنا من تعريف كل من "الترغيب" و "الترهيب" كمصطلحين يشكِّلان معاً المبدأ الذي نحن في صدد الكلام عنه:

الترغيب اصطلاحاً: "وعدٌ يصحبه تحبيبٌ وإغراءٌ بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة مؤكدة خيرة، خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل سيئ ابتغاء مرضاة الله" [1]

وما تقدم هو تعريف لأحد المؤلفين المعاصرين بيّن فيه أن جوهر الترغيب هو وعدٌ بما فيه منفعة، إلا أن التعريف غفل عن مُستند الترغيب ألا وهو الإيمان واليقين؛ فمع انعدام الإيمان بالواعد والتصديق به لا فائدة مرجوة من الترغيب.

الترهيب اصطلاحاً: "وعيدٌ وتهديدٌ بعقوبةٍ تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو التهاون في أداء الفريضة مما أمر الله به." [2]، وهنا أيضا بيَّن المؤلف أن جوهر الترهيب هو "الوعيد" المنذر بعقوبة شديدة، مع إغفال جانب، وجوب الإيمان والتصديق بالمتوعِّد والوعيد.

الفرع الأول: الغاية من أسلوب الترغيب والترهيب.

إنّ الغاية المرجوة من اتباع أسلوب الترغيب والتهذيب في دعوة الإنسان لطريق الحق هي: الموازنة بين الخوف والرجاء؛ فيكون الإنسان المؤمن خائفاً من وعيد الله وعذابه فيقوده خوفه هذا إلى اللجوء لخالقه والرجاء بالأمل في رحمته تعالى، ووعده بالمغفرة والصفح عما بدر منه من خطايا وذنوب، وبهذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله -عز وجل- بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر"[3].

وإلى غاية أخرى لأسلوب الترغيب والترهيب يُشير الإمام الشوكاني في كتابه فتح القدير في معرض الكلام عن سبب جمع الله تعالى بين الوعد والوعيد وذكر جزاء الكافرين عقب جزاء المؤمنين: "لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه"[4].

الفرع الثاني: الترغيب والترهيب في القرآن الكريم.

المتأمل في القرآن الكريم يجد فيه تعاقباً بين الآيات المتضمنة للترغيب والآيات المتضمنة للترهيب دون فصلٍ بينهما؛ وهذا يعود إلى حرصه تعالى على الموازنة بين جانبي الترغيب والترهيب؛ فسماع الإنسان لآيات الترغيب لوحدها يورث في الإنسان

---

[1] النحلاوي، عبد الرحمن، **أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**، (دمشق: دار الفكر، 1428هـ)، 287.

[2] النحلاوي، **أصول التربية الإسلامية**، 287.

[3] ابن القيم، **مدراج السالكين في منازل السائرين**، 188/2.

[4] الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير**، (دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1414هـ)، 64/1.

التساهل في أوامر الله والطمع بمغفرته دون مجاهدة النفس والصبر على الطاعة، وكذلك الأمر إن سمع الإنسان آيات الترهيب لوحدها لتسرب إلى نفسه اليأس والقنوط من رحمة الله ومغفرته، فيكون مصيره الاستسلام للشيطان ودعواته، لذا كان الاقتران بين آيات الترغيب والترهيب رحمة بالإنسان وحرصاً على هدايته، ومن الأمثلة في القرآن الكريم كثيرة على اقتران الترغيب بالترهيب، نذكر منها:

❖ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الانفطار: [13-14].

الآيتان الكريمتان تضمنتا مصير كل من المقتين والضالين؛ فجعلت النعيم للأبرار في مقابلة العذاب للفجّار، وقد توسع الإمام الرازي في تفسيره لكل من "نعيم" و "جحيم" حيث قال: النعيم القناعة، والجحيم الطمع، وقيل: النعيم التوكل، والجحيم الحرص، وقيل: النعيم الاشتغال بالله، والجحيم الاشتغال بغير الله تعالى[1].

❖ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى*وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيا*فَإِنَّ الجَحِيمَ هي المأْوى* وأمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوى* فَإِنَّ الجَنَّةَ هي المأْوى﴾ [النازعات: 37-41].

فيما مضى من الآيات القرآنية تقدم الترهيب على الترغيب وذلك خلاف لغالب المواضع التي يسبق فيه الترغيب الترهيب؛ ففي هذا الموضع جاء بيان مصير الطغاة، والذي هو الجحيم والعذاب، ثم تبعه الترغيب ببيان أنّ الجنة ستكون مأوى للمتقين والمتبعين لشرع الله ثواباً لهم[2].

❖ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: 12].

الترهيب والترغيب في الآية السابقة سار على وفق القاعدة الغالبة في أسلوب الترغيب والترهيب، وذلك بتقدم الترغيب على الترهيب، فقد بدأت بذكر مصير المؤمنين وما ينتظرهم من حسن مقام في الجنة، ثم أعقبت بالكشف عن محدودية مُتَعِ الكافرين وقبح فعالهم حيث شبهم بالبهائم والأنعام؛ لعدم تفكرهم في معاد ولا معتبرين لحجج الله وآياته في خلقه[3]، ثم ينقلب وينتهي بهم المطاف إلى عذاب شديد وأبدي.

❖ قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: 15].

في الآية وصف للنعيم الذي أعده الله تعالى للمتقين، وهذا من العناصر التي يقوم عليها أسلوب الترغيب؛ وذلك بتشويق المخاطب وترغيبه بوصف وتصوير ما ينتظره من جوائز ومكافأة ثواباً له على التزامه وطاعته، فنجد الآية بدأت بوصف نعيم

[1] الرازي، **مفاتيح الغيب**، 31/ 78.

[2] السمرقندي، **بحر العلوم**، 544/3.

[3] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، 164/22.

الجنة بإسهابٍ وتفصيل ثم ختمت بالترهيب، وذلك بالتذكير بأنّه كما أُعدَّ النعيم للمتقين، هناك جحيم ونار تلظى بانتظار البعيدين عن هدي الله والمنكِرين له[1].

المطلب الرابع: جهاد النّفس وتهذيبها.

جهاد النفس وتهذيبها يسمَّى بالجهاد الأعظم والجهاد الأكبر؛ فقد روي عن بعض الصحابة قولهم عند عودتهم من جهاد الكفار: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[2]؛ يعنون بذلك جهادهم لأنفسهم في بتهذيبها وتنقيتها مما ذُمّ من صفات وإلجامها عن اتباع الهوى والشهوات.

والأساس الذي بنيت عليه هذه الوسيلة من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. في هذه الآية الكريمة جعل الله تعالى مجاهدة النفس شرطاً وسبباً للهداية، وانطلاقاً من هذه الوحي الإلهي قسم ابن القيم هذا الجهاد إلى أربعة أجزاء: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، ثم اعتبر أنّ درجة الإنسان من الهداية والرّشاد تكون بقدر نصيبه من الجهاد ضدّ الأجزاء الأربعة السابقة[3].

وبناءً على ما سبق من أهمية جهاد النفس وما يتبعه من جهادٍ للهوى والشيطان وحب الدنيا وزينتها، يتبين لنا مدى نجاعة هذه الوسيلة التي وضعها القرآن الكريم–من خلال الآية السابقة– في محاربة عموم صفات الإنسان المذمومة؛ فصفة الكِبر والعجلة والبخل وغيرها من الصفات المذمومة المنسوبة للإنسان في القرآن الكريم، كلها يكون جهاد النفس جزءاً مهماً من علاجها، فالذي لا يجاهد نفسه ليس بإمكانه أن يتخلص من تلك الصفات ومن المعاصي الناتجة عنها كلياً.

ومن المواضع الأخرى في القرآن الكريم التي تضمنت إشارة إلى وسيلة مجاهدة النفس وتهذيبها قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ [الحج: 78].

اختلف علماء التأويل في المراد من الجهاد في الآية السابقة، فذهب بعضهم إلى أن المراد بالمجاهدة هنا طاعة الله وطلب مرضاته، وروي عن الحسن البصري: أنّ المجاهدة في الآية هي أن يؤدي الإنسان ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه عنه، وأن يترك الدنيا ونعيمها لينجو في الآخرة[4].

---

[1] النسفي، عبد الله بن أحمد، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، 1998م)، 326/3. وينظر أيضاً: Muhammed Hamdi Yazır. **HAK DİNİ KUR'AN DİLİ**. Sadeleştiren:Prof. Dr. Sadık Kılıç. 6/4383-4384.

[2] الغزالي، أبو حامد ، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة) 244/2.

[3] ابن القيم، **الفوائد**، 59.

[4] السمرقندي، **بحر العلوم**، 472/2.

بينما ذهب آخرون منهم ابن المبارك إلى أنّ المقصود من الجهاد في الآية السابقة: مجاهدة النفس والهوى، واعتبار هذه المجاهدة الجهاد الأكبر[1]. وقيل إنّ المجاهدة هنا تشمل جميع أنواع الجهاد؛ من ضمنها جهاد النفس بتزكيتها، وجهاد القلب بتنقيته من شوائب حب الدنيا والتعلق بها، وجهاد الروح بإفناء الوجود[2].

الخاتمة وأهم النتائج:

بفضل الله وتوفيقه تم الانتهاء من البحث في مسألة سبل معالجة القرآن الكريم للنفس الإنسانية وتزكيتها من صفاتها المذمومة، وذلك بالنظر والتأمل في الآيات القرآنية التي وجدناها مظنّةً لتلك الوسائل بغية استنباط طرق وسائل التزكية، وفيما يأتي نذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها:

- رسل الله تعالى وأنبياؤه هم أطباء للنفس البشرية، ولا سبيل إلى تزكيتها وتخليصها من شرورها إلا عن طريقهم، والسير على نهجهم، واتخاذهم قدوة، وإلا كان كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، دون مراجعة الطبيب واستشارته.
- نَهَجَ في معالجته للسوك البشري المذموم طريقين اثنين: الأول: المعالجة المباشرة للصفات المذمومة كلّاً على حدة، والثاني: المعالجة العامة للسلوك الإنساني المذموم.
- إن من أهم نتائج مبدأ محاسبة النفس الذي تضمنه القرآن الكريم كسبيل لتزكية النفس البشرية: استشعار العبد بمراقبة الله تعالى له، استشعار الحساب في اليوم الآخر، الوقاية من الصفات المذمومة.
- من الوسائل التي نصّ عليها القرآن الكريم في سبيل دفع الإنسان إلى وقاية نفسه من الصفات المذمومة: خشية الله في قلب الإنسان، ومخافة حسابه، معرفة الله تعالى والعلم بصفاته، المداومة على عبادة التّفكّر في خَلقِ الله.
- إن المتأمل في القرآن الكريم يجد فيه تعاقباً بين الآيات المتضمنة للترغيب والآيات المتضمنة للترهيب دون فصلٍ بينهما؛ وهذا يعود إلى حرصه تعالى على الموازنة بين جانبي الترغيب والترهيب.
- إن مبدأ جهاد النفس التي جاء به القرآن الكريم كوسيلة لتزكية لنفس البشرية لها دور كبير في معالجة الكثير من الصفات المذمومة لدى الإنسان، فعلى سبيل المثال: صفة الكِبر والعجلة والبخل وغيرها من الصفات المذمومة المنسوبة للإنسان في القرآن الكريم، كلها يكون جهاد النفس جزءاً مهماً من علاجها.

المصادر والمراجع.

- ابن القيم الجززية، **مدارج السالكين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1416هـ - 1996م).

[1] البغوي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، 402/5. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج ، **ذم الهوى**، تحقيق: مصطفة عبد الواحد، ص 40.

[2] المرجعين السابقين.

- أبو الحسن علي الحسني الندوي، **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء القرآن والسنة والسيرة النبوية**، (الكويت: دار القلم. ط2، 1983م
- أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة).
- أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (مصر: مطبعة السعادة، 1394هـ).
- أحمد بن مصطفى المراغي، **تفسير المراغي**، (مصر: مصطفى البابي الحلبي، ط1، 1365هـ).
- إسماعيل بن عمر ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي سلامة، (القاهرة: دار طيبة، الطبعة الثانية، 1999م).
- الحارث بن أسد المحاسبي، **المسائل في أعمال القلوب والجوارح**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2019م).
- السمرقندي، **بحر العلوم**، 311/2. ابن أبي زمنين، **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ-2002م).
- عبد الحق ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422هـ).
- عبد الرحمن النحلاي، **أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**، (دمشق: دار الفكر، 1428هـ).
- عبد الرحمن بن علي الجوزي، **مواعظ ابن الجوزي**، (بدون معلومات).
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنام**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ).
- عبد الله بن أحمد النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، 1998م).
- علي بن محمد البصري البغدادي، **أدب الدنيا والدين**، (بيروت: درا مكتبة الحياة، بدون طبعة).
- ماجد عرسان الكيلاني، **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، (دمشق: مكتبة دار التراث، 1985)
- محمد بن أحمد بن حزم الكلبي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، (بيروت: شركة دار الأرقم بن الأرقم، الطبعة الأولى، 1416هـ).
- محمد بن الحسن ابن فورك، **تفسير ابن فورك**، تحقيق: علال بندويش، (السعودية: جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، 2009م).
- محمد بن عبد الله ابن أبي مزنين المالكية، **تفسير القرآن العزيز**، (القاهرة: الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، 1423هـ).

- محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير**، (دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1414هـ).
- محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2005م).
- محمود بن عمرو الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1407هـ).
- محمود خليل أبو دف، **ممارسات طلبة الجامعة الإسلامية التربوية لتزكية النفس وعلاقتها ببعض المتغيرات**، (غزة: كلية التربية، الجامعة الإسلامية).
- نعيمة عبدالله البرش، **آفات النفس كما يصورها القرآن الكريم**، (رسالة ماجستير في تقسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة).